فن الحيـــاة

للدكتور إبراهيم ناجى

الحياة فن جميل . لا ، بل عدة فنون متصلة مندمجة ، تكوّن فنّا واحداً ، هو فن الحياة

وأكثر الناس لا يعرفون كيف يعيشون . أجل ، أكثر الناس يتخبطون فى ظلام دامس . ولذلك تكون حياتهم شقاء هم السبب فيه

قد تعترضون بأن من أسباب الشقاء ما لا قبل لنا به ولا يد ولا رأى ؛ ولكنى أرد بأن أكثر الشقاء — ولا أقول كله — هو من تخيلتنا ومن اعتيادنا ومن البيئة التى نوجد فيها

قلت إن الحيـاة فنون !

ولكن ما هى الحياة أولاً ؟ وما هو الفن ثانياً ؟

الحياة مطابَقَةٌ لما بين الدنيا الخارجية والدنيا الداخلية . والفن هو المعرفة مضافة إلى الطبيعة ؛ أى الملاءمة بين الداخل والخارج

فالحياة والفن من عنصر واحد . فالحياة للفن والفن الحياة

قلت إن الحياة ملاءمة بين ما فى الخارج والداخل . ويسمى العالمَ الخارجى (الماكروكزم) أو العالمَ الكبير ، والعالمَ الداخلى (الميكروكزم) أى العالمَ الصغير

فما معنى هذا ؟

معناه أن انعكاس العالم الخارجى على مرآة أنفسنا هو الذى يُشكل الحياة ويعطيها الصورة الخاصة بكل منا ، وكلما كانت الصورة المنعكسة على مرآة أنفسنا مطابقة للأصل كانت الحياة أقرب إلى الفن والكمال

وكلما كانت الصورة مشوهة أو مقلوبة أو مبتورة كانت الحياة بعيدة عن الفن والكمال

كيف إذن نجعل هذه الصورة مجلوّة على حقيقتها ، كحقيقة السماء فى أعمق بحيرة فى يوم صيف جميل ؟

إننا فى الحيـاة نقوم بأشياء كثيرة ملخصها ثلاثة أشياء : التفكير والحب والعمل

والتفكير فن والحب فن والعمل فن ...

وقد قسم العلماء التفكير إلى نوعين: التفكير بالجسد، والتفكير بالكلمة ...

والتفكير بالجسد أقواها وأضبطها ، ولكنه محدود ضيق الأفق . فمن ذلك التفكير تفكير القطة التى تثب، والملاكم الذى يضرب . فهذان يفكران بالعين واليد أو القدم ، وهذا يسمى تفكير الغريزة . ويقول أندريه موروا : إن أرقى أنواع التفكير هو الذى ينتقل من التعقل إلى الغريزة . يعنى بذلك الذى ينتقل من دور التحليل والمنطق إلى دور التنفيذ السليم بوساطة الغريزة التى تملى على أعضاء الجسد فتقوم بالعمل وتؤديه على أحسن حال .

وهناك التفكير بالكلمة ، وهو أشد أنواع التفكير خطراً وأبعدها مدى ، وهو كذلك أكثرها تفككاً وإبهاماً . فإن كلمة واحدة تثل عرشاً ، وتقلب دولاً ، وتثير نظاماً . وإن كلمة واحدة فى ميدان السياسة أو الاقتصاد لتفسر ألف تفسير وتؤول ألف تأويل

ما هى قواعد التفكير السليم ؟

إن التفكير السليم لشىء نعتاده كما نعتاد أى شىء

فالإنسان « حزمة » من العوائد كما قال ويليم جيمس

ومن الذى يعجز عن إثبات شبابه إذا كانت السبعون أمنية المتمنين !

الشباب هو ربيع العمر ، وربيع العمر له علامات وليست له حدود

والربيع هو شباب الزمان، والزمان فى شبابه يبتسم إلى غناء الطير وهتاف الكروان ، ولا يحسبه من أهل التطفل والفضول

فليكن كروانا فضولياً فى المذياع بين حوار العلماء والأدباء ، فما هو بالفضولى فى الربيع بين أزاهر الأرض وزواهر السماء

هو مدعو بكل ورقة على كل شجرة

هو صاحب بيت

هو داع فى ربيعه الخالد : ربيع الطير الذى ينفث الحياة ، وليس بربيع الإنسان الذى ترقبوه لإزهاق الأرواح وتمزيق الأبدان .

إن صوت الكروان لصوت فضولى فى هذا الربيع ، لأنه نشوز بين صفير الرصاص ودوى القذيفة ، ويالله من نشوز جميل !

عباس محمود العقاد

والتفكير السليم يكون أساسه أمرين :

الأول : الإيمان بالقواعد التى أثبتت الأجيال صحتها ، واتفقت التقاليد المتوارثة على التسليم بها . تلك أصول ثابتة فى النفس الإنسانية لا سبيل إلى إنكارها ولا الخلاص منها ، وعبث محاولة التفلت من جذور امتدت فى أعمق أعماق السرائر الإنسانية وبقيت هناك ، وإنما الشجرة التى تنمو من تلك الأعماق وتصل إلى النور والشمس هى التى يباح لها أن تحلق وتتساءل وتبحث . مثلُ ذلك مثل الطيار الذى يستكشف وهو بعد جزء من الجيش الذى ينتظر إشارته ليهتدى ، ثم ينتصر

والأمر الثانى ، الأساس الثانى للتفكير هو أمر ديكارتىٌّ محض . ديكارتى أى يوقن بعظمة العقل الإنسانى وإمكانه التحليل والتعليل والوصول . وهو يبنى قدرته على الشك المستند إلى قواعد ثابتة من القضايا المنطقية التى أسلمتها الإنسانية من جيل لجيل

ويتفرع من الأمرين أمرٌ جدير بالتدبر

وهو أنه لكى تكون الصورة المجلوة فى نفوسنا سليمة والمرآةُ غير مجرّحة ، يجب أن تستبعد الأوهام والخزعبلات والأباطيل ، يجب أن تستبعد الفكر الزائفة والأقاويل السخيفة والترهات .

هذا أساس التفكير وهو الفن الأول

أما الفن الثانى فهو الحب ؛ ويتفرع منه الصداقة أو هو أبوها وسيدها

إن رأى فرويد أن الدنيا قامت على الحب وعلى الحب وحده؛ وقد تختلف صوره وتتباين أشكاله . فهو حب للوالدين حيناً وللرفاق حيناً وللجنس المخالف ما تبقى منه . وهو عند فرويد خط مرسوم كالقطار يسير من محطة إلى أخرى ما بتر منه أو اقتصد فيه أو شوّه ، يغير وجه الحياة بحالها

ويقول علماء التناسل : إن الشاب والشابة فى سن المراهقة ينشغلان بتصوير المثل الأعلى كل فى ناحيته ، والأصل فى المثل الأعلى عند الشاب امرأة ، وعند المرأة رجل ، ولكنه لما كان فى تلك السن يستحيل تحقيق ذلك المثل ، فإن المراهق ينصرف إلى تخيل المثل الأعلى على هواه ، فحيناً يكون ذلك شعراً ، وحيناً يكون موسيقى ، وحيناً تصويراً

وهذا منشأ الفنون الجميلة

فإذا أراد الله تحقيق حلم من أحلام الشباب وجب أن يعلم كل منهما كيف يحب وكيف يستبقى ذلك الحب

وإذا علم كيف يستبقى حبيبه علم كيف يستبقى صديقه

فيجب على الرجل أن يلم أولاً بطبيعة الحب ، وثانياً بطبيعة المرأة . ويجب على المرأة أن تلم أولاً بطبيعة الحب ، وثانياً بطبيعة الرجل ، فأكثر الخلاف بينهما ناشئٌ من قلة الفهم . كلٌّ يتهم الآخر بما ليس فيه ، أو يضيف إليه ما ليس عنده

فالحب ليس عنصراً واحداً بسيطاً ، بل هو مزيج مركب من الإعجاب ، والجنس ، وحب الملك ، والاعتياد

فلا بد من الإعجاب أولاً . لابد من تلك الصدمة التى تعترى الإنسان أولاً . وثانياً ، لا بد أن يكون طبيعيا كما أرادت الطبيعة . وثالثاً لا بد من أن يحب الواحد منهما الآخر حبًّا يذرى بالانفراد ، ثم بكشف النفس وفتح مغاليق القلب فى غير تكلف ولا تصنع . ثم أخيراً لا بد أن يعتاد الواحد الآخر ، لا بد أن يتآلفا باتفاق الميول وتشابه الأهواء . ويقول العلماء إن هذا الاعتياد هو الأصمت الذى يربط العناصر الأخرى بعضها ببعض

وطبيعة الرجل فى أساسها أنه مفاصرٌ مفروض فيه القوة والجبروت والقدرة على الحماية ، مفروض أنه الجندى المحارب

وطبيعة المرأة فى أساسها الأمومة ، وما يتفرع عن ذلك من حنان

وهى التى تهيئ الوسادة المريحة للجندى ، وتبنى له العش الهادئ الجميل . ففروض إذن أنها تنال بالبساطة والوداعة والصبر ، ما دام أساس طبيعتها الحنان ، حنان الأمومة . فهما عصفت وثارت ، يجب أن يعرف الرجل أنه فى وسط العاصفة كالربان الماهر فى البحر الثائر يصبر على العاصفة ولا يكرهها ، ويتنكر له البحر ولا يزال يحبه .

وبهذا المقدار من الفهم عند كليهما تبقى المحبة بينهما ثابتة . ويبقى أن نؤكد أن أساس المحبة والصداقة معاً ، أن يتجرد الإنسان من الأنانية . يجب أن يعطى لكى يأخذ ، فأكثر الناس يأخذون ولا يعطون ، وبذلك يفقدون أحبابهم ويفقدون أصحابهم .

ونؤكد أكثر من ذلك أن أساس المحبة والصداقة أمور

صغيرة تقوم عليها الحياة ، وتقوم عليها الدنيا ، وتقوم عليها المحبة والصداقة

فالعظائم لا يقوم بها الرجل الذى لا يقوم بالأمور الصغيرة فى شكل عظيم ، وكيف نقوم بالأمور الصغيرة فى شكل عظيم ؟

إننا فى الغالب ننسى المناسبات الصغيرة التى لو انتهزناها فتذكرنا أصدقاءنا أو أحبابنا لقيدت تلك السلسلة الرقيقة أحبابنا أو أصدقاءنا بقيود تبقى مدى الحياة ، كلمة صغيرة ، هدية تافهة ، لحظة تنتهزها للسؤال عنهم ، رنة التليفون فى عيد الميلاد ، تلك أشياء ينساها أكثرنا ، وبذلك تفتر الصداقات وتموت المحبات ووقودها تلك الأمور التوافه ...

* * *

هذا فن الحب ، ويبقى فن العمل

العمل قوام الحياة والدعامة التى تقوم عليها . بل هو الذريعة التى نستتر وراءها لننسى متاعبنا وأشجاننا ؛ فما دمنا نعمل فنحن فى شاغل من عملنا ، لا نبالى بسفالات الناس ، ولا بأقاويلهم ، ولا بسخافاتهم . ولكن هل مجرد العمل يكفى ؟

كلا ، لا بد أن يكون العمل مثمراً ، لا بد من الجنى الشهى ، لا بد من الراحة بعد التعب . والراحة ذلك الجنى الشهى !

حقيقة أن المواهب تختلف ، وأن الله ينعم على هذا بالعبقرية ويجعل ذلك فى مستوى العامة

ولكن حتى العبقرية تموت إذا لم يتعهدها العمل المنظم .

ورحم الله شوقى حين قال : « السيف يزدهى بالصقال ! »

فقد كان جيته لا يخجل من ترتيب عمله

وكانت ساعات عمله منظمة ، وهو العبقرى المشهور

وكان لا يخجل أن يطرد عنه الزائر البغيض

وكان يقول للذى يشغله فى جرأة : أرجوك أن تنصرف ، فإنى مشغول

وفى الأمثال : أثقل الثقلاء من شغل مشغولاً !

ولكننا نتورط ، ونجامل ، وبذلك نضيع وقتنا

ومن أسرار السعادة أن نتبع الأفضل ، ولا نتبع سبيل المجاملة . وقد قال المرحوم أحمد عبد الوهاب باشا : إن من أسرار النجاح أن تقول « لا » حين يجب أن تقولها

إن هذا التورط ضرب من الفوضى ، ضرب من قلة الضوابط التى يتبعثر بوساطتها الزمن وتتمزق الجهود

وقد قال أحد عظمائنا : إن آفة الشباب عندنا أنهم يجاملون وسطاً فيه « فراغ » لا يستعملها أهلها !

قال إديسون : إن العبقرية ٩٩ ٪ عرق !

يعنى أن العبقرية لا تعنى الكسل ، بل الجهد الدائم ، والحيوية المتدفقة

ولقد يخيل للذى يرى أثر العبقرية فى الفنون ، أن القصيدة أو الرسم ، الذى قد يقوم به العبقرى فى ساعة أو بعضها من نتاج العبقرية وحدها . وهو واهم فإن خطاً واحداً يرسمه مصور هو جهد سنين ، وبيت شاعر قد يلوح بسيطاً ، ولكن هاته البساطة خلاصة عهود وأزمان من النصب والتعب

ويشترط فى العمل أن تتخلله الراحة ، ولا يهزأنّ أحد بذلك ، ولا يتخيلنّ أحدٌ أن الإنسان فى راحته تنقطع الصلة بينه وبين عمله ... كلا . فالعقل الباطن يشتغل داعماً ، والإنسان فى الراحة يستجم

* * *

هذه أسرار الحياة وفنها الرفيع

فلعلى أكون قد أصبت الحقيقة ، والسلام عليكم ورحمة الله

ابراهيم ناجى

ادارة البلديات — مياه

تقبل العطاءات بادارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر ١٩٤٠/٦/٢٧ عن توريد مواسير وأدوات مياه لمجلس الزقازيق البلدى وتطلب الشروط من الادارة نظير ٥٠٠ مليم ٦٧٢٦